الدكتورة أحلام بيضون

لبنانيون وزعماؤهم السياسيون

لو كنا في غير بلد لما كنا سنشهد ما نشهده في لبنان من استقبال بالشعارات المتكررة والموحدة بالنسبة لكل الزعماء "بالدم بالروح نفديك يا زعيم" . ولا حتى في البلاد العربية' إذ في تلك البلاد ربما تنحصر الظاهرة بالملك أو الرئيس المتملك دون غيره من أفراد السلطة. في لبنان كل رجل سلطة هو زعيم. فلماذا؟

الجـواب وجـدناه فــي عبــارات نطـق بهـا أحـد المـواطنين المسـتقبلين لأحـد الزعمـاء العائـد إلـى مدينتـه، حـين رد فـــي الإعـــلام قـــائلا: "أنـــا لا أعـــرف الدولــة، فـلان (ذاكـرا الـزعيم باسـمه دون كلفـة) هـو مـن ربـاني، أنـا يتـيم، وهـــذه الكنـــزة التـــي ألبســـها هـــو اشتراها لي...."

لقـد أوردنـا تلـك الواقعـة كشـاهد علـى مـا نعتقـده سـببا فـي الفسـاد القـائم علـى مسـتوى النظـام السياسـي. فهـذا المثـل البسـيط يبـين كـم أن المـواطن مـرتبط بمـن يسـد حاجاتـه، نائبـا بـذلك عـن

الدولة التي من المفترض أن تقوم هي بدور الحامي للمواطن من الجوع والمرض والغلاء والأمية والتهميش والإعتداء، وسبب تقصير الدولة هو النظام الفاسد؛ أما سبب الفساد فهو بسبب تقصير الدولة؛ وهكذا ندور في حلقة مغلقة.

تقصير الدولة، لجوء إلى الأغنياء، ارتباط شبه إقطاعي، ارتباط مصالح، نظام إنتخابي طائفي، انتخاب الزعيم المعروف شخصيا من المواطن. استغلال الزعيم

لموقع السلطة وإلهاؤه المواطنين بالمعونات مما يجعلهم في تبعية حياتية له.

ولا بد هنا من بعض التفصيل لكي يفهم المقصود. أما فيما يتعلق بتقصير الدولة في تقديم الخدمات الأساسية لمواطنيها خاصة الطبقة المعوزة منهم فيلجأ المواطنون نتيجة لتقصير الدولة وعدم القيام بواجباتها تجاه مواطنيها إلى الجهات القادرة ماديا على إعانتهم. هذه الجهات هي : إما رجال دين

أو هيئـــات دينيـــة؛ إمـــا جمعيـــات خيريـة أو فـاعلي خيـر؛ إمـا أشـخاص ساعين إلى الوصول إلى السلطة.

بالنسـبة لنشـاط الفئـة الأولـى يتحـول الشـخص بطبيعـة الحـال إلـى مصـنف طـائفي فهـو لا يسـتطيع التخلـي عـن طائفتـه التـي تحميـه وتسـد حاجاتـه خاصـة الحياتيـة منهـا. بالنسـبة للفئـة الثانيـة بشـكل عـام، وقـع عملهـا علـى المـواطن يكـون سـليما ولكنهـا هـي التـي تكـون مضـطرة إلـى التبعيـة للجهـة أو الجهـات التـي تمولهـا وتغطـي نشـاطها سـواء مـن الهيئـات

الدينيـــة أو الشخصـــيات السياســـية أو الشخصـيات المتمولـة، وبالتـالي يفقـد المـــواطن حريتـــه بصـــورة غيـــر مباشـرة. أمـا بالنسـبة للفئـة الثالثـة فـإن تبعيـــة المـــواطن الـــذي يطلـــب المســاعدة أو تقــدم لــه يفقــد حريتــه بشـــكل كامـــل، ويشـــعر أخلاقيـــا وماديـــا أنـــه ملتـــزم بالوفـــاء باتبـــاع الشـــخص الـــذي يمـــول لـــه حاجاتـــه. طبعـــا إذا ترشـــح الشـــخص المتمـــول للنيابـــة فإنـــه يضـــمن أصـــوات أولائـــك الأشـــــخاص وعـــــائلاتهم وربمـــــا أقـــاربهم. المســألة تصـبح أكثـر تعقيـدا

حين تتحول الحاجة إلى حماية قضائية لأشخاص كانوا ضحية تعد، أو أنهم هم كانوا مرتكبين لمخالفات وربما لجرائم. كذلك يحتاج المواطنون أيضا لتدخل أو ما يسمى بالعرف اللبناني (واسطة) من قبل جهات دينية أو سياسية أونافذة بحكم موقعها المادي كي تحصل على وظائف أو عمل. يتحول مقدموالخدمات للمواطنين سواء كانت خدمات مادية أو قضائية أو وظيفية أو غير ذلك إلى زعماء بنظر أولائك

الحاصلين عليها، وطبعا لا يعود بالإمكان إقناعهم بإعطاء أصواتهم لمرشحين آخرين مهما كانت مناقبيتهم ومستواهم الأخلاقي أو مستوى كفاءتهم.

يصل الزعيم إلى الحكم لينضم إلى الزعماء الباقين الذين يتشابهون معه بالطبع، وكيفية الوصول، وينشأ بينهم تآلف، وتواطئ يشي بخلاف علني في الخطاب السياسي بينما هم في أقوى درجات الإنسجام، فمصالحهم متشابهة، والآلية التي تمكنهم من تحقيق تلك

المصالح هي ذاتها : نظام طائفي، وتقاسم للمناصب وللمنافع. يؤدي ذلك إلى انتشار المفاسد في النظام في ظل انعدام الشفافية للأسباب المذكورة ذاتها، مما يبقي من يتولون السلطة في منأى عن الحساب والمساءلة.

السلطة والمال والفساد يجعل من فيها يجدون صعوبة كبيرة في التخلي عنها لأسباب عدة أهمها:

- أن أطراف السلطة هم مغرمون بها إلى حد الشغف،

- لأن السلطة توفر لهم الثروة التي هم عبيد لها،
- لأن السلطة توفر لهم الملاذ الآمن من أية مساءلة. إن ابتعادهم عن السلطة ربما يعرضهم للملاحقة بسبب خرقهم للقانون، بسبب أعمال غير شرعية تصل إلى حد جرائم ارتكبوها خلال وجودهم في السلطة.

هذا الوضع يجعل أي مطالبة من قبل الشعب بالإصلاح صعبة للغاية، لأن النظام قد شرع على

قيـــاس مصـــالح الســـلطة الفاســـدة، وبمـــا أن رجـــال الســـلطة لهـــم أتبـــاعهم مـــن مـــواطنين منتفعـــين، وإعلاميـين، ورجـال ديـن، فـإن أي تحـرك فـي الشـارع لفـرض تغييـر مـا، سـيؤدي إلـى اسـتثارة الشـوارع الطائفية.

يصـبح الشـعب علـى ضـوء مـا تقـدم بـين نـارين نـار السـلطة الفاسـدة ونـار الفـتن الطائفيـة الممكنـة الوقـوع إذا مـا تظـاهرت فئـات مـن الشعب للمطالبة بحقوقها.

بناء على ما تقدم، وفي ضوء ما تشهده البلاد العربية من ثورات وتغيرات جذرية في النظم القائمة، وإمكانية الإستفادة من تجارب الشعوب الشقيقة، فلا بد للشعب اللبناني خاصة شبابه الصاعد من الإعتماد على نفسه، مبتعدا عن الأحزاب التي هي على شاكلة السلطة الرسمية، والمطالبة بحقوقه من خلال تغيير النظام الذي لا يلبي مطالبه ولا ينسجم مع ما يطمح إليه. وبما أن الشعب هو صاحب السيادة، وأن

الحكام ليسوا سوى مندوبين عنه لإدارة شؤونه، فمن حقه أن يضغط لتحقيق مطالبه وما على الحكام إلا الإنصياع لتلك المطالب.

لم يعد بإمكان الزعماء في لبنان أن يستغبوا المواطنين، فالنظام الطائفي يجب أن يتغير، ويجب على الشعب أن يتحرك لتغيره ووضع حد للمحاصصة، ويجب في حال التحرك الشعبي، أن لا يعود المحتجون إلى البيوت، كما تعودوا أن يفعلوا، بل يجب أن

يستمروا ويثبتوا ويصبروا إلى أن تتحقق مطالبهم. أما الشعارات فيجب أن تبتعد عن كل ما يثير الغرائز الطائفية أو الفئوية، فالإنسان هو الإنسان مهما كانت طائفته، أو أصله، أو لغته... وحاجاته الحياتية هي ذاتها، وواجباته هي ذاتها.